

❁ السياق وعلاقته بالتفسير والقراءات القرآنية

د.أ.د/ خير الدين محي الدين سيب*

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز (المملكة العربية السعودية)

تاريخ النشر: 2021/07/15

تاريخ الإرسال: 2021/02/01

ملخص:

تضمن البحث موضوع السياق وعلاقته بالقراءات القرآنية، فاستعرض بداية مفهومه عند العلماء والباحثين الذين تفاوتوا في التعبير عنه، ثم ذكر أنواعه الأربعة المؤتلفة والمتكاملة بينها، وختم بأمثلة عن الصلة بين السياق وعلم القراءات حيث أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات. وخلص البحث إلى عدم جواز الخروج بالآية مما دل عليه لفظها وسياقها وأنه يأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في معنى الآية.

الكلمات المفتاحية: علم السياق القرآني، تعدد القراءات.

* المؤلف المرسل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:
فإن السياق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم القراءات، كونه أداة أساسية لفهم المعنى الصحيح للقراءات وتوجيه الدلالات إلى المعنى وإزالة التعارض.

إشكالية الموضوع:

هل السياق ثابت في كل آية من كتاب الله، وهل هو أصل في بيان معناها؟

خطة البحث:

أولاً: مفهوم السياق

ثانياً: أنواع السياق القرآني وصلته بالتفسير:

ثالثاً: السياق وصلته بعلم القراءات.

أولاً: مفهوم السياق عند العلماء:

علم السياق القرآني علم عظيم المنزلة رفيع القدر، وهو من أهم ما يوصل للفهم الصحيح لكتاب الله تعالى؛ إذ هو الطريق الأسلم لجعل كلام الله متناسباً منتظماً، وهذا هو الأنسب لكتاب الله المعجز المحكم

وإن من أعظم ما يبين منزلة هذا العلم أنه مرتبط حقيقة بالقرآن نفسه من حيث إنه تفسير للقرآن بالقرآن، ذلك أنه تفسير للآية بما تضمنه نصها، أو بما سبقها ولحقها من الآيات، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، بل هو أقوى مراتب هذا النوع، وذلك أن تفسير القرآن بالقرآن قد يكون في محل واحد وسورة واحدة، وقد يفترقان، وأقوى النوعين وأسلمهما ما كان في محل واحد وسورة واحدة، وهذا هو السياق؛ إذ أن السياق هو: الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية.

ومن هنا فيمكن القول بأن السياق أصل من أصول التفسير التي يجب الاعتماد عليها في

تفسير كتاب الله تعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع، في باب فهم الكتاب والسنة"⁽¹⁾

ويقول ابن القيم متحدثاً عن أهمية السياق في تعيين الدلالة: "السياق يبين إلى تبين المحمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"⁽²⁾

وعدّ الزركشي السياق من الوسائل التي يتوصل بها إلى فهم ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين فيقول: "وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه من السياق"⁽³⁾

وإذا علم فضل هذا العلم ومنزلته في التفسير، فإنه من أعظم ما ينبغي على المهتمين بتفسير القرآن ملاحظته ومراعاته.

مفهوم السياق عند العلماء والباحثين:

بالنظر إلى أقوال العلماء في تحديد مفهوم السياق نجد أنهم متفاوتون في التعبير عنه، ولنا أن نستعرض شيئاً من أقوالهم في ذلك ليتبين المراد: قال ابن دقيق العيد: "أما السياق والقرائن، فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه"⁽⁴⁾

وقال السرخسي⁽⁵⁾: "القرينة التي تقتزن باللفظ من المتكلم، وتكون فرقاً فيما بين النص والظاهر هي السياق، بمعنى الغرض الذي سيق لأجله الكلام"⁽⁶⁾

¹ مجموع الفتاوى 18/6

² بدائع الفوائد لابن القيم 10 و9/4

³ في علوم القرآن للزركشي 200./2

⁴ إحكام الأحكام 21/2

⁵ محمد بن حمد بن سهل، قاض من كبار الأحناف، مجتهد، مات سنة 483هـ. انظر: الأعلام 315/5

⁶ أصول السرخسي 164/1.



وقال السلجماسي⁽⁷⁾ في تعريف السياق بأنه: "ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول"⁽⁸⁾

وقال البناني⁽⁹⁾: "السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه"⁽¹⁰⁾

بالنظر لمجموع ماذكر العلماء في تعريف السياق يمكن الخروج بنتيجة واضحة أن السياق مؤلف من عدة عناصر:

أولها: الغرض والمقصود ومراد المتكلم وهو محوره وقطب رحاه وعمدته.

ثانيها: تألف الكلام وتتابعه وجريانه على أسلوب واحد.

ثالثها: الظروف المحيطة بالنص، وأحوال المخاطبين فيه.

واستيعاب السياق لهذه العناصر واشتماله عليها هو الذي يوفق بين المعاني المختلفة ويحدد هذا المصطلح العام.

ويمكن أن نخلص إلى تحديد أدق للسياق بناءً على ذلك كله: بأن السياق هو الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية .

وبهذا الحد يتوافق المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وبه يجتمع اختلاف العلماء والمفسرين في تعريف السياق؛ ولذا فإنه يمكن أن يطلق على عنصر من عناصر السياق بأنه السياق باعتبار أنه جزء منه، وعليه يحمل إطلاق بعض المفسرين للسياق، وغالب إطلاقهم للسياق مقصود به الغرض الذي ورد الكلام لأجله كما تبين من أقوالهم السابقة وتأيداً لما خلصت إليه في تحديد السياق أذكر ما قرره بعض الدارسين لمفهوم السياق، قال صاحب كتاب دلالة السياق:

⁷ علي بن عبد الواحد بن محمد أبو الحسن الأنصاري، كان آية باهرة في جميع العلوم وجميع أحواله كلها مرضية مات سنة 1057هـ. انظر: الموسوعة الميسرة 1626/2 ومعجم المؤلفين 471/2

⁸ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ص 18.

⁹ عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي فقيه أصولي نزيل مصر مات سنة 1198هـ، انظر معجم المؤلفين 86/2

¹⁰ حاشية البناني على جمع الجوامع 20/1 .

"وهنا يمكن تلخيص القول في مفهوم السياق في التراث العربي في النقاط الثلاث التالية:

الأولى: أن السياق هو الغرض، أي مقصود المتكلم في إيراد الكلام...

الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها،
الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر والتحليل،
ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام"⁽¹¹⁾.

وقال صاحب كتاب منهج الدرس الدلالي عند الشاطبي: "ويمكن نعت بحث الشاطبي
لمسألة السياق بأنه مستوعب لمقتضيات الخطاب التي تتطلب النظر في مجموع ما يرتبط به"⁽¹²⁾.

وقال صاحب كتاب البحث اللساني: "السياق يقتضي عناصر مختلفة، أولاً عنصر ذاتي وهو
معتقدات المتكلم وأيضاً مقاصد المتكلم، ثم العنصر الثاني أسميه عنصراً موضوعياً وهو الوقائع
الخارجية التي تم فيها القول يعني الظروف الزمانية والمكانية. ثم العنصر الذي أسميه العنصر الدوائي،
وأقصد به المعرفة المشتركة بين المتخاطبين"⁽¹³⁾.

وقال صاحب رسالة دلالة السياق وأثرها في توجيه التشابه اللفظي: "وبعد هذا البيان فإننا
نخلص إلى تعريف للسياق، وهو أنه: الغرض الذي تتابع الكلام لأجله، مدلولاً عليه بلفظ المتكلم،
أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم نفسه، أو السامع"⁽¹⁴⁾.

ويقول صاحب رسالة أثر السياق في النظام النحوي: "وبعد هذا الكم من التعريفات يمكن
أن نخلص إلى تعريف يختصرها بقولنا هو: (مجموعة القرائن اللفظية والحالية الدالة على قصد المتكلم
من خلال تتابع الكلام وانتظام سابقه ولاحقه به)"⁽¹⁵⁾.

ويقول سعيد السهراني صاحب رسالة السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية:

¹¹ دلالة السياق لردة الله الطلحيص 51.

¹² منهج الدرس الدلالي عند الإمام الشاطبي ص 165

¹³ البحث اللساني - طه عبد الرحمن - منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 6، ص 301 .

¹⁴ دلالة السياق وأثرها في توجيه التشابه اللفظي في قصة موسى، للشيخ فهد الشنوي ص: 27.

¹⁵ أثر السياق في النظام النحوي على كتاب البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري - الدكتور نوح الشهري، ص 79.



"التعريف المختار للسياق القرآني، هو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال من حال المخاطب، والمخاطب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"⁽¹⁶⁾.

ثانياً: أنواع السياق القرآني وصلته بالتفسير:

السياق القرآني يختلف عن أي سياق آخر، وذلك أنه مكون من أربعة دوائر من السياق بعضها داخل في بعض ومبني عليه. وهذا من أعظم ما يتميز به القرآن العظيم، بل هو من مظاهر إعجازه وبلاغته. وذلك أنه ينقسم إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: سياق القرآن.

النوع الثاني: سياق السورة.

النوع الثالث: سياق النص أو المقطع أو الآيات.

النوع الرابع: سياق الآية.

وهذه الأنواع الأربعة مؤلفة اثلاًفاً عجيباً فلا تجد بينها تعارضاً، بل إنها متكاملة تكاملاً، ينتج عنه معاني متعددة وأغراض متنوعة، وهذا - والله أعلم - سر كون القرآن محتملاً للوجوه الكثيرة والمعاني المتعددة، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة"⁽¹⁷⁾.

وقد حقق هذا التنوع في سياق القرآن صاحب كتاب (دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم) فقال: "السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة، ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السورة كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى أن هناك: سياق آية، وسياق النص، وسياق السورة، والسياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى"⁽¹⁸⁾. وسنقف مع كل نوع لتحديد المراد منه بإجمال:

¹⁶ السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، للدكتور سعيد الشهري ص: 22

¹⁷ أخرجه عبد الرزاق في المصنف (255/11) رقم (20473)، وانظر: ((البرهان في علوم القرآن)) (1/193)

¹⁸ دلالة السياق منهج مأمول لتفسير القرآن الكريم)) (ص 88

النوع الأول: سياق القرآن:

المراد بهذا النوع من السياق القرآني، مقاصد القرآن الأساسية، والمعاني الكلية التي تسمى بالكليات في القرآن، والأساليب المطردة في القرآن التي تسمى بعادة القرآن. وعلى هذا فيمكن تقسيم هذا النوع إلى وجوه:

الوجه الأول: مقاصد القرآن العظمى:

القرآن مبني على أغراض ومقاصد أساسية، وهذه الأغراض والمقاصد معتبرة في تفسير كلام الله تعالى كله، بل يجب الاعتماد عليها في كل سورة وآية منه حسب ما يقتضي المقام فيها . ومقاصد القرآن ظاهرة فيه، وقد أجمل ابن عاشور مقاصد القرآن كلها في ثمانية مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني: تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحتها وحفظ نظامها، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول⁽¹⁹⁾.

ودليل اعتبار مقاصد القرآن كله ما جاء في السنة من اعتبار سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله، واعتبار سورة البقرة سنام القرآن، وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وهذا إنما يكون بالنظر لمعاني هذه السور بالنسبة لمعاني القرآن كله .

الوجه الثاني: المعاني الكلية:

والمقصود بالمعاني الكلية هو ما يرد في القرآن من الألفاظ التي يطرد أو يغلب معناها في جميع القرآن، فيستعملها القرآن بمعنى واحد غالباً، وهذا ما يسمى بكليات القرآن . قال شيخ الإسلام: "إذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء، ولفظ الشارع قد اطرء في معنى، لم يجوز أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله تعالى ورسوله بقول فيه نزاع"⁽²⁰⁾. ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشنقيطي في معنى الغلبة قال: "والغالب في القرآن هو استعمال الغلبة بالسيف والسنان"⁽²¹⁾.

¹⁹ (انظر: ((التحرير والتنوير)) (8/1).

²⁰ ((مجموع الفتاوى)) (35/7).

²¹ أضواء البيان (376/3).

الوجه الثالث: الأساليب المطردة:

والمقصود بالأساليب المطردة هو ما يستعمله القرآن من الأساليب، ويطرد في القرآن كله، وهذا ما يسمى بعادة القرآن.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره الشنقيطي قال: "كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالالوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: {أفبي الله شك} [إبراهيم 10]، وقوله تعالى: {قل أغير الله أبغي رباً} [الأنعام 164]"⁽²²⁾

النوع الثاني: سياق السورة:

من أعظم دلائل الإعجاز في هذا القرآن العظيم، أنه بني على سور متفرقة لكنها منتظمة في بناء واحد محكم، وكل سورة منها وحدة متكاملة متناسقة، يجمعها غرض واحد يسمى بوحدة السورة أو سياقها.

ووحدة السورة أو سياقها العام هو الذي يطلع القارئ على مضمون السورة كلها، ولو تدبر القارئ وتفحص وتبصر في سورة واحدة لرأى قرآنا عجباً ذلك بما سيتجلى له من ترابط السورة وقوة بنائها وانتظامها في خيط واحد، وكيف لا يكون ذلك وهو كلام رب العالمين الذي أتقن كل شيء.

قال البقاعي: "إن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن، مترتبة على معرفة الغرض أو الأغراض التي سبقت لها السورة"⁽²³⁾.

وحين نرى العناية بهذا العلم العظيم نرى أن كثيراً من المفسرين أغفلوه ولم يلقوا له بالاً مع أنه من أعظم ما يعين على فهم كتاب الله تعالى.

ومن غنى بهذا المجال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم اللذان أبدعا في تفسير كتاب الله تعالى واستخراج دقائقه.

²² أضواء البيان (376/3)

²³ نظم الدرر (17/1).

فنرى مثلاً شيخ الإسلام يبرز وحدة سورة البقرة ويحدد سياقها وغرضها العام فيقول: "وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين"⁽²⁴⁾

وبين سياق سورة الأحزاب وغرضها العام، فيرى أنها تتحدث عن النبي ﷺ في نصرة الله له وهزيمة الأحزاب الذين تحزبوا عليه، وذكر خصائصه وحقوقه؛ ولهذا افتتحت بندائه بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ }²⁵

ونرى أيضاً ابن القيم الذي كان بارعاً في استخراج دقائق القرآن وأسراره، يبين سياق سورة التحريم وأنها في بيان مقام النبي ﷺ وأزواجه وتحذيرهن من التظاهر عليه ولهذا افتتحت بندائها بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ }، قال: "في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنها سيقّت في ذكر أزواج النبي ﷺ والتحذير من تظاهرن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصا لهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصا لهما بهما"⁽²⁶⁾.

ومن أشهر من تناول هذا العلم من السياق وبرع فيه محمد دراز صاحب كتاب (النبأ العظيم)، وصاحب الظلال سيد قطب، فهما ممن حملا رايته، وأبدعا فيه.

أما محمد دراز فقد أبدع في دراسته لسورة البقرة واستكشف غرضها. ويقول في مقدمته: "إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بناء واحد قد وضع رسمه مرة واحدة.. ولماذا نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان... ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي مجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بمجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"⁽²⁷⁾

²⁴ مجموع الفتاوى ((41/14

²⁵ مجموع الفتاوى ((433/28

²⁶ الأمثال في القرآن ((ص57

²⁷ النبأ العظيم ((ص154-155

أما سيد قطب فقد سلك هذا المسلك في تفسيره الضلال، وجعل من منهجه أن يقدم بين يدي كل سورة بوحدها الموضوعية وسياقها العام. ولعلنا نعرض لمثال واحد من ذلك، يقول في أول كلامه عن سورة البقرة: "يلحظ من يعيش في ضلال القرآن أن لكل سورة من سور شخصية متميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة"⁽²⁸⁾

ويدخل في سياق السورة الاستدلال بما غلب وروده في السورة كلها. ومن أمثلة ذلك: ما ذكره ابن جرير في ترجيح ماورد من القراءات في قوله تعالى: "سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ" [الصفات، 130]، ووردت قراءة بلفظ "آل ياسين"⁽²⁹⁾ فرجح الأولى بدلالة سياق السورة فقال: "والصواب من القراءة في ذلك عندنا : قراءة من قرأ "سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ" بكسر ألفها، على مثال إدراسين؛ لأن الله تعالى ذكره إنما أخبر عند كل موضع ذكر فيه نبياً من أنبيائه - صلوات الله عليهم - في هذه السورة بأن عليه سلاماً لا على آله، فكذلك السلام في هذا الموضع، ينبغي أن يكون على إلياس، كسلامه على غيره من أنبيائه، لا على آله"⁽³⁰⁾

النوع الثالث: سياق النص أو القصة:

سياق النص يأتي كجزء ووحدة من جملة السورة، يكون موضوعه واحداً وغرضه واحداً لكنه يتناسق ويتناسب مع وحدة السورة العام. ويظهر النص غالباً في سياق القصص، وبعض التشريعات، والموضوعات. كقصة آدم، وآيات بني إسرائيل، وآيات القبلية، وآيات الحج في سورة البقرة .

ولو تدبرت كل سورة لوجدتها تنجزاً إلى عدة مقاطع كل مقطع يتضمن غرضاً مستقلاً. وقد تجلّى ذلك في دراستي لسورة البقرة.

فمن أمثلة ذلك آيات النفقة والربا والمدائنات في سورة البقرة كل موضوع جاء لغرض، وقد اجتمعت كلها في غرض واحد وسياق واحد هو حفظ الأموال وبناء النظام الاقتصادي للأمة .

²⁸ في ضلال القرآن)) (27/1.

²⁹ انظر : ((التيسير)) (ص187) ، ((السبعة)) (594

³⁰ جامع البيان)) (523/10

قال ابن عاشور: "نظم القرآن أهم أصول حفظ مال الأمة في سلك هاته الآيات، فابتدأ بأعظم تلك الأصول، وهو تأسيس مال للأمة به قوام أمرها.." (31)

وقال صاحب الظلال: "منذ الآن إلى قرب نهاية السورة يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يريد أن يقوم عليها المجتمع المسلم، وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة" (32)

النوع الرابع: سياق الآية:

كل آية في كتاب الله تعالى تحمل غرضاً مستقلاً، وإلا فما سر هذه الفواصل بين الآيات، وقد تجلّى ذلك في دراستي لسورة البقرة، فرأيت أن كل آية لها غرض قد تشترك فيه مع سابقتها أو لا حققتها لكنها تختص بجانب منه.

وقد تناول المفسرون هذا النوع كثيراً في بيانهم لتفسير كلام الله والترجيح بين المعاني فيه، ومن على الأمثلة في ذلك: ما ذكره بعض المفسرين في المراد بالإحصان في قوله تعالى: +فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ [النساء 25]

فقد رجح ابن كثير والشنقيطي أن المراد بالإحصان في الآية التزويج لدلالة السياق. قال ابن كثير: "والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان ها هنا التزوج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول الله تعالى "وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتٍ الْمُؤْمِنَاتِ [النساء 25] والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله تعالى: "فَإِذَا أُحْصِنَ" أي تزوجن كما فسره ابن عباس ومن تبعه" (33)

قال الشنقيطي: "قوله تعالى: "فَإِذَا أُحْصِنَ" أي: فإذا تزوجن، وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله تعالى: +فَإِذَا أُحْصِنَ" الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال "وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً" الآية" (34)

³¹ ينظر التحرير والتنوير ((78/3)

³² في ظلال القرآن ((304/1)

³³ تفسير ابن كثير ((631/1)

³⁴ أضواء البيان ((280/1)



ومن الأمثلة في تعيين غرض الآية: قوله تعالى: " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [البقرة، 261].

غرض هذه الآية هو بيان شرف النفقة ومضاعفة أجرها، تحريضاً على الإنفاق في سبيل الله تعالى. قال ابن عطية: "هذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك" (35).

هذه هي أنواع السياق القرآني، وهي مجموعها تنبئ عن عظمة القرآن في ترابطه وبنائه وإحكامه، وتطلعك على منهج عظيم لدراسة القرآن العظيم وتفسيره .

ثالثاً: السياق وصلته بعلم القراءات:

علم القراءات من العلوم العظيمة المتعلقة بالتفسير، وهو دال على عظمة هذا القرآن لأن تعدد القراءات يدل على تعدد المعاني والأحكام .

ولذا فقد عنى العلماء بهذا العلم وألفوا فيه كتباً لا حصر لها⁽³⁶⁾ وفوائد القراءات عظيمة منها:

- أنها من أعظم البراهين على إعجاز القرآن؛ إذ لم يكن فيه تناقض مع تعدد القراءات فيه، كما أنها دالة على بلاغة القرآن وإيجازه، حيث تقرأ الكلمة بأكثر من وجه فتدل على أكثر من معنى.
- أجل حكمة فيها هي التيسير على الأمة في القراءة والتخفيف فيها، حيث روعي في ذلك اختلاف اللغات واللهجات.

- أن لها تأثيراً ظاهراً في تعدد المعاني، والأحكام الفقهية، وذلك أنها في الغالب تتضمن معنيين أو حكمتين مختلفتين، مثل قراءة "وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ" [المائدة، 6] فقراءة النصب في "وَأَرْجُلَكُمْ" تدل على فرضية الغسل، وقراءة الجر تدل على جواز المسح على الخفين. وهذه الخاصية من أعظم المقاصد في ورود القراءات في كتاب الله تعالى⁽³⁷⁾
- والخلاصة هي أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات⁽³⁸⁾

³⁵ المحرر الوجيز)) (1/355 .

³⁶ من تلك المؤلفات: جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي، وكشف الضياء في تاريخ القراءات والقراء للدكتور صابر أبو سليمان، وتاريخ القراءات في المشرق والمغرب للدكتور محمد المختار، وصفحات في علوم القراءات للسندي.

³⁷ انظر: صفحات في علوم القراءات لأبي الطاهر السندي ص 137 .

³⁸ انظر: مناهل العرفان للزرقاني 149/1

الصلة بين السياق وعلم القراءات:

السياق هو العمدة في توجيه القراءات، وذلك لأن تعدد القراءات كما ذكرت يدل على تعدد المعنى والحكم في الآية. والذي يظهر هو السياق غالباً، وقد تجلّى لي في تفسير سورة البقرة، أن ورود القراءات في الآية دال على تعدد المعنى والحكم فيها، وتجلّى أيضاً أن السياق له أثر في إظهار معنى كل قراءة.

ومن أمثلة ذلك: القراءات الواردة في قوله تعالى: مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ [الفاتحة، 4].

أفاض المفسرون في ذكر القراءات فيها، وتنازعوا في الترجيح بينها، وتوسعوا في بيان أوجه ترجيحها⁽³⁹⁾. والقراءات المتواترة فيها قراءة "ملك" و"مالك"⁴⁰

والذي يؤيده السياق ظاهراً هو القول بمجموع القراءتين من غير ترجيح بينهما، بل لا يكمل المعنى المراد إلا بهما جميعاً، مع أن "ملك" أعظم وأعلى من "مالك" من حيث المعنى والدلالة، كما بين الرحمن على الرحيم من المعنى والدلالة والمنزلة.

ويتبين هذا القول من وجوه:

أولاً: أن مجموعهما دال على معاني الملك كله وكماله، وذلك كله داخل في إظهار اختصاصه تعالى وتفرده بالكمال المطلق كما هو مضمون السورة وسياقها، ودلالة ذلك من جهة أن الملك أعظم قدرة وقهراً وسلطاناً، والمالك أعظم تصرفاً، فالأول في القهر والثاني في التصرف. والكمال في الملك لا يتم إلا بالملك المفيد لتمام التصرف وهو ما تفيد قراءة "مالك"، والملك المفيد للعزة، المقرون بالهيبة، المثمر للبطش والقهر، المنتج لنفوذ الأمر، وهو ما تفيد قراءة "ملك"⁽⁴¹⁾ فثبت أن الكمال لا يتحقق إلا باجتماع معنى القراءتين، وبه يثبت ترجيحهما على السواء.

³⁹ انظر: السبعة في القراءات 104/1، وحجة القراءات 82/1، وجامع البيان 94/1، والخرر الوجيز 31/1، ومفاتيح الغيب 1/192، والبحر المحيط 31/1.

⁴⁰ انظر: جامع البيان 94/1، والخرر الوجيز 31/1، ومفاتيح الغيب 192/1، والبحر المحيط 31/1، والجامع لأحكام القرآن 1/16، وملاك التأويل 1/170، وتفسير القرآن العظيم 1/133، وإرشاد العقل السليم 1/16، والتحرير والتنوير 1/175، وحاسن التأويل 1/222، والمنار 1/54.

⁴¹ انظر: نظم الدرر 29/1.

ثانياً: دلالة السياق اللفظي عليه، من عدة وجوه، منها:

- أن الجمع أنسب بسياق الآية من حيث الإضافة إلى يوم الدين، الذي يشتمل على القهر والتصرف. وقد تصدى المفسرون والمحتجون للقراءات لبيان ما في كلا القراءتين من خصوصيات بحسب قصر النظر على مفهوم كلمة ملك، ومفهوم كلمة مالك، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدين، فأما والكلمة مضافة إلى يوم الدين فقد استويا في إفادة أنه القاهر المتصرف في ذلك اليوم وحده دون سواه⁽⁴²⁾. والقرآن يشهد للقراءتين باجتماعهما صراحة في يوم القيامة، فالمعنى الأول يشهد له قوله تعالى: {لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ:} [غافر 16]، والثاني يشهد له قوله تعالى: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً} [الانفطار، 19]، فظهر بذلك صحة كمال القراءة بهما جميعاً، وأن كمال المعنى لا يتحقق إلا باجتماعهما .

- مناسبتهما لما قبلهما من حيث أنهما جميعاً بمنزلة الرحمن الرحيم، وذلك أن الرحمن والملك اسمان متعلقان بذات الله تعالى وصفته، والرحيم والمالك متعلقات بفعل الله تعالى وأثر اتصافه بالصفة. فكما جمع تعالى بين الرحمن الرحيم، جمع بين القراءتين، وبذلك يتبين كمال المعنى باجتماعهما، قال القرطبي: إن وصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته، وإن وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله⁽⁴³⁾

- مناسبتهما لما بعدهما من حيث أن مجموعهما المتضمن للترهيب والترغيب والخوف والرجاء كما تبين، وهو مناط العبودية، مناسب تمام المناسبة للآية بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة، 5]. فكأن القارئ بعد أن يستحضر المعنيين جميعاً ويحققهما، يتوجه إلي ربه فيقول +إِيَّاكَ نَعْبُدُ". واستحضاره لمعنى دون الآخر لا يتحقق به كمال العبودية، وإن كان كل قراءة متضمنة للمعنيين جميعاً، ولكن تحقيق المعنيين وكماهما يتحقق صراحاً بمجموع القراءتين، ولذا كانت القراءتان راجحتين جميعاً على السواء.⁽⁴⁴⁾

⁴² انظر: التحرير والتنوير 147/1.

⁴³ انظر: الجامع لأحكام القرآن 143/1.

⁴⁴ ومن هذا الوجه نأخذ مشروعية القراءة بهما جميعاً في الصلاة، بحيث يقرأ بهذه مرة، وبهذه مرة، أو بإحداها في السرية والنافلة، والأخرى في الصلاة الجهرية إذا كانت هي المعمول بها في البلد .

وللاحتجاج على رجحان الجمع بينهما أوجه أخرى لا تتعلق بالسياق أعظمها وأولها ثبوت القراءتين جميعاً عن النبي ﷺ وأصحابه⁽⁴⁵⁾، وتواترهما ولا سبيل مع هذا الوجه لأحد في ترجيح القراءة بينهما، وقد أخذ على إمام المفسرين ابن جرير وغيره ترجيح قراءة "ملك" على "مالك". ولكن يعذر له أنه لا يقصد بحال رد القراءة الثانية، وإنما يقصد أن قراءة "ملك": أبلغ وأعظم معنى، ولو سلك في ترجيحه هذا المسلك لكان أولى. والله أعلم.

خاتمة:

السياق ثابت في كل آية من كتاب الله تعالى، وهو أصلٌ في بيان معناها؛ لأنه لا يتعارض مع أي قرينة من القرائن، ولا يجوز الخروج بالآية عما دل عليه لفظها وسياقها. ويقرر ذلك صاحب قواعد الترجيح في قاعدة مهمة فيقول: "كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله"⁽⁴⁶⁾

وعليه فيكون السياق أصلاً مطرداً متفقاً مع جميع القرائن والأدلة في الآية، ويتقرر من هذا بأن السياق يأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في معنى الآية، ويكون القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد

.وقد قرر ذلك الزركشي بقوله: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز"⁽⁴⁷⁾

ويقرر ذلك صاحب قواعد الترجيح فيقول: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه"⁽⁴⁸⁾

ولكن هنا مسألة مهمة يجب اعتبارها وهي أن معرفة السياق مبنية على الاجتهاد وغلبة الظن، وعليه فيكون تحديد السياق أمراً ظنياً لا قطعياً، ولهذا تجد الاختلاف في تحديد السياق في الآية الواحدة.

مسألة مهمة: تنازع دلالة السياق مع غيرها في معنى الآية.

قد يرد ما يدل ظاهراً على تعارض بعض الأدلة مع السياق، لكن التأمل الدقيق في التوفيق بينهما يؤدي إلى تبين الرابط أو المناسبة.

⁴⁵ انظر: أبو داود 433/2 برقم 4000 والترمذي 185/5 برقم 2927 وضعفه الألباني. وانظر: جامع البيان 94/1، والحرر الوجيز 31/1، ومفاتيح الغيب 1/192، والبحر المحيط 1/31.

⁴⁶ قواعد التفسير عند المفسرين 349/2.

⁴⁷ البرهان في علوم القرآن 1/317.

⁴⁸ قواعد الترجيح عند المفسرين 299/2.

المصادر والمراجع:

1. أحمد عبد الحليم بن تيمية، مجموعة الفتاوى الكبرى، جمع: عبد الرحمن بن قاسم العاصمي، سوريا، مطبعة الرسالة، ط: 1- 1398هـ/1977م.
2. ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، المملكة العربية السعودية- مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط: 1- 1416هـ/1996م.
3. محمد بن بھادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان- بيروت، دار المعرفة، د.ط، 1391هـ.
4. ابن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، تح: محمود حامد عثمان، مصر- القاهرة، دار الحديث، ط: 1، 1404هـ.
5. أحمد بن أبي سهل السرخسي، أصول السرخسي، تح: أبو الوفا الأفغاني، لبنان- دار المعرفة، ط: 1، 1404هـ.
6. السجلماسي أبو محمد القاسم، المنزج البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي المغربي، الرباط، (1401هـ/1980م).
7. عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي، حاشية العلامة البناني على شرح المحلى على جمع الجوامع، تح: محمد عبد القادر شاهين، لبنان، دار الكتب العلمية، ط: 1، 1411هـ.
8. عبد الرزاق، مصنف عبد الرزاق تح: حبيب الرحمن الأعظمي لبنان- بيروت: المكتب الإسلامي، ط: 2، 1403هـ.
9. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان- بيروت، ط: 1، (1420هـ/2000م).
10. محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المملكة العربية السعودية- مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط: 1، 1426هـ/2006م.
11. سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، لبنان- بيروت: دار الشروق، ط: 10، 1402هـ/1982م.
12. ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: محمود محمد شاكر، مصر- القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط: 2، د.ت.
13. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، لبنان- دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، (1420هـ/1999م).
14. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي، لبنان- بيروت، دار الكتب العلمية، ط: 1، 1993م.
15. عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، لبنان- بيروت، دار الكتاب العربي، ط: 1، 1415هـ/1995م.
16. السراي، مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير، لبنان- بيروت، دار الكتب العلمية، ط: 1، (1421هـ/2000م).
17. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، لبنان- بيروت: دار الكتاب العربي، ط: 1، 1422هـ/2002م.



18. ابن خلوويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: د. عبد العال سلام مكرم، لبنان- بيروت، دار الشروق، ط:4، 1401هـ/1980م.
19. محمد أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، لبنان-بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط:1، 1405هـ/1985م.
20. إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، لبنان-بيروت، دار الكتب العلمية، ط:1، 1415هـ-1995م.
21. محمود بن الشريف، الأمثال في القرآن، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، المملكة العربية السعودية-جدة، دار عكاظ، ط:2، 1406هـ-1986م.
22. أبو طاهر عبد القيوم السندي، صفحات في علوم القرآن، المملكة العربية السعودية-مكة المكرمة: المكتبة الأمدادية، ط:1، 1514هـ.
23. أبو جعفر ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل، لبنان-بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.
24. محمد علي الحسن، المنار في علوم القرآن، تقديم: له محمد عجاج الخطيب، لبنان-بيروت، مؤسسة بيسان والبدر، د.ط-، 1990م.
25. الحسين بن أحمد بن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبد العال سلام مكرم، لبنان-بيروت، دار الشروق، ط:4، 1401هـ.
26. دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى عام 1424هـ.
27. طه عبد الرحمن، البحث اللساني، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب.